الإمام محمد أبو زهرة

تاريخ الجدل

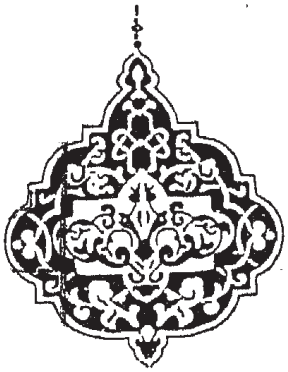

ملزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أما بعد ، فهذه مذكرة فى تاريخ الجدل ، تشتمل على ملخص للمحاضرات التى ألقيت على طلبة السنة الثانية من كلية أصول الدين ، تحريت فيها الايجاز من غير إخلال فى بيان الخلاف ومواضعه ، والإطناب من غير إملال فى بيان صور الجدل وأحواله .

وأسأل الله التوفيق ، وأن يجعل لها ثمرتها المرجوة وهى تربية روح الجدل المنظم فى نفوس أولئك الطلبة الذين يهيئون أنفسهم ليكونوا وعاظا ومرشدين .

والله سبحانه وتعالى المستعان .

يناير سنة ١٩٣٤ — محمد أبو زهرة

المناظرة والجدل والمكابرة

تدور على الألسنة عبارات المناظرة والجدل والمكابرة ، وأحياناً تطلق إحداها فى موضع الأخرى ، وفى الحق أن بينها اختلافاً واضحاً فى الاصطلاح :

فالمناظرة يكون الغرض منها الوصول إلى الصواب فى الموضوع الذى اختلفت أنظار المتناقشين فيه .

والجدل يكون الغرض منه إلزام الخصم ، والتغلب عليه فى مقام الاستدلال .

والمكابرة لا يكون الغرض منها إلزام الخصم ، ولا الوصول للحق ، بل اجتياز المجلس ، والشهرة أو مطلق اللجاجة ، أو غير ذلك من الأغراض التى لا تغنى فى الحق فتيلا .

ويلاحظ أمران :

أحدهما : أن المناقشة الواحدة قد تشتمل على كل هذه الأنواع الثلاثة ، قد يبتدىء المناقشان متناظرين طالبين للحق ، فينقدح فى ذهن أحدهما رأى يثبت عليه ، ويأخذ فى جذب خصمه إليه ، وإلزامه به ، وحينئذ تنقلب المناظرة جدلا . وقد تدفعه اللجاجة إلى التعصب لرأيه ، وتأخذه العزة بالإثم ، تبدو له الحجج واضحة على نقيض رأيه ، ويبدهه خصمه بالدليل تلو الدليل ، فلا يحير جواباً ، ومع ذلك يستمر فى لجاجته ، فينقل الجدل إلى مكابرة . وقد تشتمل المناقشة على جدل ومناظرة ، كأكثر المحاورات السقراطية . كان سقراط يبتدىء بمجادلة خصمه فيما يدعيه ، حتى يفحمه ، فيقتنع بجهله ، ثم يناقشه حتى يأخذ بيده إلى الحق .

ثانيهما : أن الجدل قد يطلق فى اللغة ويراد منه المناظرة كقوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » . وقد تطلق المناظرة ويراد منها الجدل أو المكابرة لغة . كقول الغزالى فى رسالة (أيها الولد) : أيها الولد إنى أنصحك بثمانية أشياء اقبلها منى لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة ، تعمل منها أربعة ، وتدع منها أربعة : أما اللواتى تدع ، فاحداها ألا تناظر أحداً فى مسألة ما استطعت لأن فيها آفات كثيرة ، فإثمها أكبر من نفعها ، إذ هى منبع كل خلق ذميم ، كالرياء والحسد ، والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها إلخ . إلخ . . والمناقشة التى تجر إلى هذه الرذائل إنما هى جدل أو مكابرة وسنطلق فى كتابتنا كلمة الجدل على ما يشمله هو والمناظرة .

العناية بالجدل :

وقد عنى العلماء فى الإسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة ، من يوم أن نشب الخلاف الفكرى بين العلماء ورجال الفكر فى هذه الأمة ، وانتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة ، لكى يكونا فى دائرة المنطق والفكر المستقيم ، أسموها علم الجدل ، أو علم أدب البحث والمناظرة ، وقد قال فيه ابن خلدون فى مقدمته : وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة ، التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فإنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعاً ، وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ، ومنه ما يكون صواباً ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ أن يكون مستدلا ، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ، ولخصمه الكلام والاستدلال ، ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها إلى حفظ رأى ، أوهدمه ؛ كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره . . . . . وأول من كتب فيه البزدوى والعميدى ، ثم كثر التأليف فيه من بعدهما .

الاختلاف ومنشؤه

لا جدل إلا حيث الاختلاف فى إدراك حقيقة من الحقائق ، ولو أردنا أن نعين مبدأ هذا الاختلاف الفكرى بين بنى الإنسان ، ما اهتدينا ، ويظهر لى أن ذلك النوع من الاختلاف قديم بقدم الإنسان فى هذه الأرض ، ابتدأ معه حيث ابتدأ ينظر إلى الكون فيشده بعظمته ، وتأخذه الحيرة فى إدراك كنهه وحقيقته ، وإذا كان العلماء يقولون أن الإنسان من يوم نشأته أخذ ينظر نظرات فلسفية إلى الكون ، فلابد أن نقول : إن الصور والأخيلة التى تثيرها تلك النظرات تختلف فى بنى الإنسان باختلاف ما وقعت عليه أنظارهم وما أثار إعجابهم ، وكلما خطا الإنسان خطوات فى سبيل المدنية والحضارة اتسعت فرجات الخلاف ، حتى تولد من هذا الاختلاف المذاهب الفلسفية ، والديانات غير المنزلة ، وغير ذلك .

وأسباب الاختلاف فى الحقيقة كثيرة جداً منها :

غموض الموضوع فى ذاته :

تصدى الفلاسفة من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة فى ذاتها ، وليست الطرق لفهمها وإدراكها معبدة ، فكل يرى ما تقع عليه بصيرته ، وما تهديه إليه هويته ، وربما كان الحق مجموع أقوالهم . وقد قال أفلاطون فى مثل هذا المقام : إن الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه ، ولا أخطئوه فى كل وجوهه ، بل أصاب كل إنسان جهة ، ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل ، وأخذ كل منهم جارحة منه فجسها بيده ، ومثلها فى نفسه فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة ، وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والراية المرتفعة ،

وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره . فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك، وكل يكذب صاحبه ، ويدعى عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل ، فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم .

ومن الموضوعات التى كان غموضها سبباً فى الاختلاف حقيقة النفس ، وحقيقة المنشىء للكون فى فترة من الرسل، ومسألة صفات الله سبحانه وتعالى .

غموض موضع النزاع :

كثيراً ما يختلف المتجادلان ، ويشتد بينهما الخلاف لأن موضع النزاع لم يعلم بالتعيين ، وكان سقراط يقول : إذا عرف موضع النزاع بطل كل خلاف . وذلك لأن كلا المتناظرين المختلفين فى طلب الحقيقة يقع نظره على ما لا يقع عليه نظر الآخر ، ويبنى حكمه على ما وقع عليه نظره ، فكأنه فى الحقيقة لم يتلاق مع خصمه فى موضوع ، وذلك كما إذا رأى أحد الناظرين وجها لقرطاس فحكم بما رأى ، ورأى الآخر وجها آخر ، فحكم بما رآه ولذلك كان سقراط يعنى كل العناية بدلالات الألفاظ ، ليفهم كلا الخصمين كلام الآخر ، فيتلاقيا فى نقطة واحدة ، وإذا تلاقيا انحسم الخلاف .

اختلاف الرغبات والشهوات :

قال إسبينوزا : إن الرغبة هى التى ترينا الأشياء مليحة لا بصيرتنا . وإذا كانت الرغبة تستولى على مقياس الحسن والقبح على النفس ذلك الاستيلاء ، كما قال ذلك الحكيم ، ورغبات الناس مختلفة متضاربة ، فلابد إذن من أن يختلفوا باختلافها ، وتتباين آراؤهم لتباين رغباتهم .

اختلاف الأمزجة :

قال ويليام جيمس : إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ، وهذا الاختلاف بين الأمزجة له أيضاً شأنه فى ميدان الأدب

والفن والحكومة . وذلك قول حق ، فإن كثيراً من اختلاف الآراء سببه اختلاف أمزجة القائلين لها . فذو المزاج العصبى الحاد يرى ما لا يراه الورع الهادئ ، وإذا كانت الأحوال العارضة للإنسان من هدوء أو غضب ، واستقرار واضطراب تجعل آراءه مختلفة باختلافها ، فلابد أن يعتقد أن اختلاف شخصين فى المزاج داع لكثير من اختلافهما فيما يذهبان إليه من آراء .

اختلاف الاتجاه :

جاء فى الجزء الثالث من رسائل إخوان الصفا : القياسات مختلفة الأنواع ، كثيرة الفنون ، كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها. مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء ، ولا قياس المهندسين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين ، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين ، وهكذا قياس المنطقيين فى الرياضيات لا تشبه قياسات الجدليين ، ولا تشبه قياساتهم فى الطبيعيات ولا الإلهيات . وإذا كان لكل علم أقيسة خاصة به ، فمن غلبت عليه أقيسة علم إذا بحث فى موضوع مع صاحب علم آخر يختلف نظراهما ، وكل ينبعث فى تفكيره روح علمه ، واعتبر ذلك بالخلاف بين المعتزلة والفقهاء والمحدثين فى مسألة خلق القرآن ، فإن الاختلاف بينهما كان سببه اختلاف مناهج البحث ، وإن شئت فقل اختلاف عقليتين : إحداهما تستنبط العقائد من الآثار كما تستنبط الأحكام العملية ، والأخرى تسير وراء العقل مهتدية به ، ومندفعة فى تياره .

تقليد السابقين ومحاكاتهم من غير نظر إلى الدليل ؛ ونقص للبرهان :

كثيراً ما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليدهم للآباء ، ونعى عليهم إهمال العقل فى مثل قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . وقوله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

ولا تزال نزعة تقليد السابقين فى نفوس الناس ، وإن كانوا يتفاوتون فيها قوة وضعفاً ؛ وإن سلطان الأفكار التى أكسبتها الأجيال قداسة يسيطر على القلوب فيدفع العقول إلى وضع أقيسة وبراهين لبيان حسنها ، وقبح غيرها . وطبعى أن يدفع ذلك إلى الاختلاف ، والمشاحنة ، والمجادلة غير المنتجة ، لأن كلا يناقش وهو مغلول بقيود الأسلاف ، من حيث لا يشعر . ولو فكت قيود المتناظرين للاح لهما وضح الحق المبين ، وأشد ما يكون الاختلاف بسبب التقليد فى المسائل الاجتماعية .

- اختلاف المدارك :

بعض الناس قد آتاه الله عقلا راجحاً ، وبصيرة نافذة ، وفكراً ثاقباً يدرك الموضوع من كل نواحيه ، ويلم بظواهره وخوافيه ، وبعضهم فيه قصور نظر ، فلا يستطيع إحاطة الموضوع بنظرة شاملة ، وفيه قصور فكر ، فلا يدأب فى البحث عن الحقيقة إلى النهاية ، ولابد أن تختلف النتائج التى يحصل من كان على هذه الشاكلة عما يصل إليه من كان من الصنف الأول ، وقد جاء فى رسائل إخوان الصفا : إنك تجد كثيراً من الناس يكون جيد التخيل ، دقيق التمييز ، سريع التصور ذكوراً ، ومنهم من يكون بليداً ، بطىء الذهن ، أعمى القلب ، ساهى النفس ، فهذا أيضاً بعض أسباب اختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب لأنه إذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك .

الرياسة وحب السلطان :

كثيراً ما يدفع الغرض ذا السلطان إلى الأخذ بآراء ساقته إليها رغبة ملحة جامحة ، ويحمل كثيراً من العلماء الذين جعلوا قلوبهم سلعة تباع بثمن بخس على المناداة بها ، والمجادلة لنشرها ، وقد يندفع هؤلاء فى دعوتهم حتى يخيل إليهم أنهم مخلصون فيما يدعون إليه ، أو أنه محض الحق والصواب وينبرى للرد عليهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فندبوا أنفسهم

للذود عن الحقيقة ، وحفظ ذمارها ، فتكون بين الفريقين نار مشبوبة ، وربما يكون من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير .

روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق ، عليم اللسان ، غير حكيم القلب يغيرهم بفصاحته وبيانه ، ويضلهم بجهله ، وقلة معرفته » .

التعصب :

إذا تغلبت على الإنسان فكرة ، فتجتاز عقله ، وتسيطر عليه ، وتمنعه من أن تصل إليه فكرة تناقضها ، أو خاطرة تنازعها ، تهتاج أعصابه ، ويثور ثورته إن هوجم فيها ، ومنشأ هذا التعصب الثائر ، إما قوة الإيمان بالفكرة ، أو أعصاب ضعيفة تمنع من إدراك ما لم يثب إليها أولا ، أو غرور وخيلاء ، وحيثما كان التعصب لزمته المجادلة أو المكابرة ، وقد يخفى على الإنسان موضع التعصب فى نفسه ، فيحسب أنه مخلص فى طلب الحق ، وهو منطو على عصبية تدفعه ، وقد تبين له الحقيقة إذا راقب نفسه ، وحاسبها حساباً عسيراً .

سيطرة الأوهام :

تستولى على كثير من الناس أوهام تجعلهم يسلمون بأفكار غريبة فى ذاتها وهم باعتناقهم لها يخالفون من لم يقعوا تحت تأثير أوهامهم ، وليست تلك الأوهام مقصورة على العوام ، بل إنها قد تكون فى أشد أحوالها عند بعض خواص العلماء ، ولقد قال بعض الحكماء الأوربيين : إن خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر . وما ذلك إلا لسلطان الأوهام .

جدل العرب في الجاهلية

العقلية العربية :

الجدل بين شخصين صورة لمنازعهما الفكرية ، واتجاهاتهما العقلية ، لذلك كان من الضروري عند دراسة الجدل في أمة دراسة عمليتها ، وما عرض لها من منازع ، وإذا كنا بصدد دراسة تاريخ الجدل عند العرب ، كان من اللازم أن نعرف العقلية العربية .

اختلف العلماء في حقيقة العقلية العربية بين مغال في إعلائهم ؛ ومغال في التصغير من شأنهم ، فالجاحظ يجعلهم نظراء الفرس والروم واليونان والهند بل أعظم ، وابن خلدون يقول فيهم : هم أبعد الناس عن العلوم ، لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعلم ؛ فاندرجت في جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها كما قدمنا ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي ولذلك كان حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم ، أو المستعجمون باللغة والمربى ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم .

ويقول أوليري في وصف العربي : يملك الطبع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، ولا يميل كثيراً إلى دين ، ولا يكترث لشيء إلا بمقدار ما ينتجه من فائدة عملية .

ويقول رينان في كتابه اللغات السامية ، واصفاً الأمم السامية ، ومنها العرب : إن الأمم السامية كلها على اختلاف نزعاتها أمم قصيرة الخيال ، جافة التصور ، تدرك الأشياء إدراكاً أولياً ، ولا تتعمق في بحثها ؛ ولا تسترسل في كشف الحقائق ومعرفتها ، وتحكم على الأشياء لأول وهلة ؛ حكم المعتقد

الجازم بصحة الشيء الذى أقنعته التجارب والبراهين القطعية ، خيالاتها محدودة وإدراكاتها محدودة ، ونظمها الاجتماعية معروفة محدودة ، لا تعرف الانتقال ، غير قابلة للمرونة ، وغير أهل للتقدم ، ليس فى نظم حكومتها ما يدل على سعة الإدراك ولا على أثر التفكير ، وليس لها فى علم الأدب والفنون أثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الأخرى مما يدل على مجدها ومظاهر الرقى فى الاجتماع وفى باب الفنون . وقال : إن الأمم السامية لا فلسفة لها ، ولا أثر للقوانين والنظم فيها ، وإن الشرائع التى أرشدت العالم ومحت منه ظلمات الجهالة لا وجود لها عند الأمم السامية . ثم قال : إن هذا كله يرى فى بلاغتهم . ويقول : الشعر العربى يعوزه الاختلاف والتنوع ، فموضوعات الشعر محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين . وقد تبع هذا الرأى كثير من علماء أوروبا فى منتصف القرن الماضى .

ويظهر للمتأمل فى هذا الكلام أنه يصف العرب بالقصور الفكرى ويعد ذلك فيهم طبعاً وجِبِلَّة ولازمة من لوازمهم لا تفترق عنهم .

وفى الحق أننا نجده قد تجنى على الحقيقة ، وظلم التاريخ ، إذ أنكر على العرب بلاغتهم فى كلامهم ، وخيالهم الشعرى ، فقد عد عدم تنوع شعرهم دليلا على نقص تفكيرهم بالطبيعة والسليقة . فإن التاريخ الأدبى العربى يضعهم فى وصف أقوى الأمم أدباً ، وأكثرها إنتاجاً ، لا ينكر أنه ينقصه الشعر القصصى والشعر التمثيلى ، ولكن ليس معنى ذلك نقصان فطرتهم عمن انتشر بينهم هذان النوعان ، لأن البيئة الفكرية لها حكمها ، وهذان النوعان لا يسودان إلا فى أمة لها علوم وتسود فيها الكتابة والتدوين ، والعرب كانت أمة أمية ، علومها تجارب ، ودراستها تلقين ، ومعارفها تؤخذ باللسان والمشافهة ، والتمرس بالحياة وأحوالها .

ولسنا ننكر أن العرب لم تكن عندهم فى الجاهلية علوم كاملة ، وبحوث متنوعة وأفكار فلسفية عميقة كفلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، بل نقول

ما قاله صاحب الملل والنحل فى حكماء العرب : هم شرذمة قليلة ، وأكثر حكمتهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر . ولكن ليس ذلك لأن عقل العربى غير قابل للعلوم ، بل لأنه فى عصره الجاهلى لم تعرض له ثقافات واسعة النطاق ، تنظم فكره ، وتهيئه لبحث علمى منظم يتقصى أطرافه ، ويتعمق فى ظواهره ، وخوافيه .

وما كان كل ذلك إلا من أثر البيئة الطبيعية والأحوال الاقتصادية ولم يكن فيه فطرة وجبلة ، وخاصة لا تفارقه ، كما يدعى ذلك الأوربى المتعصب وإن لبس لبوس العلماء ، ولو كان القصور الفكرى الذى ظهر فى عرب الجاهلية فطرة وجبلة ما كان من سلالتهم أولئك الفلاسفة الأعلام ، كالكندى وغيره ، من حملة الفكر الإسلامى الذين قال فيهم العلامة سديو : بذل العرب همتهم فى العناية بجميع ما ابتكرته الأفهام البشرية من المعلومات والفنون ، واشتهروا فى غالب البلاد وخصوصاً أوروبا النصرانية بابتكارات تدل على أنهم أئمتنا فى المعارف ، ولنا شاهد على علو شأنهم الذى جهله الفرنجة من أزمان بعيدة . بل إن ذلك العالم المخلص فى طلب الحقيقة يرى فى طبع العرب الاستعداد للمعارف والعلوم ، إذ يقول فيهم : كانوا مستعدين استعداداً طبيعياً ، لأن يكونوا وسائط بلاغ بين الأمم .

ولقد تصدت دائرة المعارف البريطانية لإبطال ادعاء رينان وأمثاله من أن القصور الفكرى طبيعة العقل العربى ، فقد جاء فيها : وليس من صواب الرأى ما فعله رينان ولا سن بإضافتهم صفات خاصة إلى الجنس السامى هى فى الواقع ناشئة عن عوامل خارجية ، فهى نتيجة البيئة التى عاشوا فيها . والأحوال التى أحاطت بهم ، وإنهم لو عاشوا فى بيئة أخرى وفى أحوال أخرى لظهرت لهم صفات جديدة .

ولسنا مغالين إذا قلنا أن العرب من ناحية الاستعداد الطبيعى ككل الأمم ذوات الأعصاب الحادة القوية ، على استعداد لتلقى أرقى الثقافات إن تهيأت لها أسبابها ، ولذلك ظهرت بحوث فلسفية عميقة دقيقة لكثير ممن عنوا بالفلسفة

منهم أيام أن ازدهرت العلوم والمعارف فى العصر العباسى ، كما اشتهر كثير منهم بالاستقصاء والضبط والنظر فى العلوم نظرة كاملة شاملة مستنبطة ، كالخليل بن أحمد فى استنباطاته اللغوية ، والشافعى فى بحوثه الشرعية القانونية ، وهما عرب بالثقافة والسلالة .

معلومات العرب ودياناتهم :

كانت معلومات العرب قليلة ساذجة ، ولم تكن لها علوم بمعناها الحقيقى :

وكان كثير من معلوماتهم مبناه التجارب الشخصية التى توارثوها خلفاً عن سلف ، كعلاجهم بالكى وغير ذلك .

وقد وصلت إليهم بعض المعلومات تسربت إليهم من مجاوريهم الفرس والرومان ، لاختلاطهم بهم فى التجارة ، أو بالمجاورة . ولذلك كانت القبائل التى فى الأطراف كالغساسنة والمناذرة أكثر ثقافة وأرقى علوماً ، وكذلك القبائل التى كانت تختلط بالفرس والرومان فى التجارة كقريش ، كانت أرقى فكراً ، وأوسع عرفاناً .

وكانت الصحراء مأوى للذين يفرون بعقائدهم وحرياتهم الدينية كالكلدان ، فإنهم لما أغار عليهم الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وفتحوا بلادهم ، وأرهقوهم ، ونقبوا عن قلوبهم ، فحاولوا أن يغيروا عبادتهم انسابوا فى الجزيرة العربية ، وأفاد العرب منهم معلومات كثيرة فى الفلك أخذوا عنهم بعض ما علموا وما وصل إليهم من علم الهنود وغيرهم . وربما كان أقوى ما يدل على أن العرب أخذوا من هؤلاء بعض ما كان عندهم وخصوصاً فى الفلك أن كثيراً من أسماء النجوم والأبراج تشير مع عربيتها إلى أصلها الكلدانى . فكلمة مريخ معربة مرداخ الكلدانية ، وكلمة الثور أصلها بالكلدانية ثورا ، والعقرب عقربا ، وغير ذلك :

ديانات العرب :

العبادة نتيجة لأحد شعورين :

١ — شعور الإنسان بأن قوة خفية لا يستطيع أن يدرك كنهها تسير العالم ، وتدفعه إلى الحركة فى دقة وإحكام ، وهو شعور مستكن فى أعماق النفس متغلغل فى أبعد أغوارها ، لا ينزعه منها مراء أو جدال ، حتى لقد قال بعض الحكماء : إن إدراك الله بدهى ، وعرفانه بالفطرة والوجدان ، لا بالمنطق والقياس .

٢ — شعور المرء خطأ بأن محسوساً من المحسوسات أوتى قوة ليست لغيره تسيطر على الأشياء كشعور المصريين بأن للعجل قوة تسيطر عليهم ، وهذا شعور يدفع إلى الخطأ ، ولكن كان له أثره فى الزمن القديم .

وقد كانت الجمهرة العظمى من العرب عندها هذان الشعوران ، فدفعهم الأول إلى عبادة الله ، واعتقدوا أنه خالق الكون ، وبارىء النسم ، وشعورهم الثانى ، دفعهم إلى عبادة الأوثان تقرباً بها إلى الله زلفى كما حكى الله عنهم فى قوله تعالى : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . ولكن كيف وجد عندهم الشعور بأن فى الأصنام قوة تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ؟

يقول بعض المؤرخين فى سبب ذلك : إن العرب كانوا يأخذون شيئاً من أحجار الكعبة إذا رحلوا من مكة ، وأقاموا فى غيرها ، فيعظمونها تعظيمهم للكعبة ، فانتشر لذلك تعظيم الحجارة بينهم ، ولما ذهب عمرو ابن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ، ورأى ما يفعله أهلها من تعظيم التماثيل ، والتقرب بها أخذ طائفة منها ، وأقامها على الكعبة (وقد كان سادنها) ، ودعا العرب إلى عبادتها . ويظهر أن إيمانهم بالأصنام لم يكن على دعامة من الحق .

قال العلامة دوزى : كانوا فى ظاهر أمرهم يمجدون الأصنام ويحجون

إلى محرابها . . ويذبحون القرابين فى هياكلها . . على أن عقيدتهم لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، فقد كانوا لا يترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها . . وقد تنزل بأحدهم كارثة ، فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعجة قرباناً له إذا انكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر حتى يستبدل بالنعجة غزالا ، لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده .

فالنفس العربية لم تكن مذعنة تمام الإذعان ، مؤمنة تمام الإيمان بتلك الأحجار ، ولقد وجد من مفكريهم من أنكر عليهم عبادة الأوثان ، واعتقد بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، خالق الكون من غير شك ولا إنكار .

وقد انتشرت المسيحية واليهودية فى بلاد العرب ، فالمسيحية كانت منتشرة فى الجنوب ، وفى نجران وفى غساسنة الشام ، وقد قال دوزى : كانت المسيحية فى ذلك الزمان بما تحويه من معجزات . وبما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من رب مصلوب قليلة الجاذبية ، بعيدة عن التأثير فى نفس العربى الساخر الذكى .

وأما اليهودية : فقد سكنت الجزيرة العربية من الزمن القديم ، إذا وفد إليها طائفة من اليهود الأولين ، الذين كانوا أوغلوا فى الصحراء بعد خروجهم من مصر ، وفر إليها طوائف من اليهود الذين نجوا بعقائدهم لما فتح بختنصر أورشليم ، ودك أسوارها ، ومزق اليهود كل ممزق ، ومن هذه الطوائف قريظة وبنو النضير ؛ ولما عاد اليهود إلى بيت المقدس بعد ذلك التمزيق ثم شردهم الإمبراطور أدريان الذى ثاروا عليه ؛ ألحق بهم الأذى وشتتوا مرة ثانية ، كان منهم كثيرون جاءوا إلى الجزيرة ، هذا وقد دخل فى اليهودية بعض القبائل العربية ، وكانت اليهودية فى زمن دين اليمن الرسمى وكانت المدينة قبيل الإسلام مرجع اليهود ومثابتهم فيها أحبارهم ، وربانيوهم .

ويظهر أن القبائل المجاورة للفرس كان منها من تسربت إليه بعض المبادىء المجوسية ، بل من آحادها من اعتنق هذه الديانة ، ومنهم من كانوا من الصابئة

الذين كانوا يقدسون الكواكب ، وذلك لدخول كثير من الكلدان فى البلاد العربية ، وفيهم شاع تقديس الكواكب واحترامها .

هذا ولما لليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة من أثر فى البلاد فى جاهليتها ، ولما نفثه اليهود والنصارى والمجوس بين المسلمين بعد الإسلام من سموم الخرافات ، وبذور الفتن التى ترتب عليها تفرق المسلمين بعد الإسلام فرقاً مختلفة فى السياسة وأصول الاعتقاد ، لهذا وذاك نتكلم عن كل ديانة من هذه الديانات كلمة مؤجزة أشد الإيجاز .

اليهودية :

نزلت التوراة مشتملة على شريعة موسى عليه السلام ، واستمرت معمولا بها منهم ، يهديهم إليها أنبياؤهم الذين جاءوا من بعد موسى عليه السلام حتى أغار على بلادهم بختنصر فى المرة الأولى والثانية ، وأجلاهم عن بلادهم ، فلما عادوا بعد ذلك ، ومضت قرون عدة : اختلفوا لعروض التغيير والتبديل ، فى أصولهم الدينية واستمروا فى اختلافهم الشديد بعد تخريب الرومان بلادهم وانتهت أفكارهم الدينية إلى كتاب سموه التلمود أخفوا عنه كثيراً مما جاء به موسى عليه السلام ، وزادوا فيه أحكاماً من رأيهم .

قال المقريزى : وصاروا منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم ، وضمنوه ما هو من رأيهم ، ينسبون ما فيه إلى الله تعالى ، ولذلك ذمهم الله فى القرآن الكريم بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » . ويقول المقريزى أيضاً : لما جاء عانان رأس الجالوت إلى العراق أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود ، وزعم أن الذى بيده هو الحق ، لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا (١) موسى عليه السلام الذى بخطه .

---

(١) المشنا معناه استخراج الأحكام من الأمر الإلهى .

وقد افترقت اليهود بعد تخريب بلادهم ثلاث فرق :

١ — الربانيون :

وهم الذين أخذوا بما فى التلمود ، واعتبروا أمر البيت الذى بنى ثانيا بعد التخريب كالأول ، وينزلونه منزلته فى التقديس والاحترام .

٢ — القراء :

وهم لا يعتبرون فى التقديس إلا البيت الأول ، ولا يعبرون التلمود ، ويأخذون بما فى التوراة فقط .

٣ — السمرة :

وهم من الفرس الذين تهودوا وأقاموا بالشام ، وهؤلاء يزعمون أن التوراة التى بأيدى اليهود ليست توراة موسى ، أما توراة موسى فهى ما بأيديهم .

وقد افترقوا فى طريق فهم كتبهم على ثلاث فرق أيضا :

١ — الفروشيم : وقال المقريزى أن معناها المعتزلة ، وهؤلاء يقولون كما قال المقريزى : بما فى التوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم ؛

٢ — وطائفة يقال لها الصدوقية ، ومذهبهم كما قال المقريزى أيضا : القول بنص التوراة ، وما دل عليه القول الإلهى فيها دون ما عداه .

٣ — وطائفة الصلحاء ومذهبهم الاشتغال بالنسك وعبادة الله والأخذ بالأفضل والأسلم فى الدين .

هذا وقد تأثر اليهود بالفلسفة اليونانية ، لوقوعهم تحت سلطان اليونان والرومان قرونا ، وكان من أحبار اليهود مَنْ تعلَّم الفلسفة اليونانية .

جاء فى كتاب فجر الإسلام للأستاذ الجليل أحمد أمين : قال بلدوين فى

كتابه معجم الفلسفة : إن الشرق والغرب إختلطا فى الاسكندرية ، وامتزجت آراء رومة واليونان والشام فى المدينة والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى فى ذلك ، فنشأت قضية جديدة عمل على إيجادها بحث الغرب وإلهام الشرق ، واتصل الدين بالفلسفة اتصالا وثيقا ، كان من نتائجه ظهور عقائد دينية ، لا هى من الفلسفة المحضة ، ولا من الدين الخالص ، بل أخذت بطرف من كل ، وجاء ذلك من عاملين :

أحدهما : ميل اليهود إلى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربى الذى كان متأثرا بالعلم اليونانى .

وثانيهما : أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية ، والقضايا الدينيـــة المحضة التى جاء بها المشارقة .

ومن أى الجهتين نظرنا ، رأينا أن النتيجة ، كانت فلسفية دينية ، لا هى فلسفة محضة ، ولا هى دين خالص .

جاء اليهود إلى البلاد العربية ، ومعهم تلك الذخائر من الفكر ، لذلك أَدَلُّوا على العرب بتلك الثقافة وكانوا يقولون عن عرب الجاهلية : ماعلينا فى الأميين سبيل . وأثروا فى أفكار المسلمين ، وكان كثير من الفتن التى وقعت بين المسلمين لهم اصبع فيها ، أو هم موقظوها ومثيروها . فعبد الله ابن سبأ كان على رأس الفتنة التى انتهت بقتل الخليفة الشهيد عثمان ، وكعب الأحبار أدخل القصص والخرافات فى أفكار كثير من المسلمين . وكان اليهود أحد ثلاثة : فريق بقوا على يهوديتهم ، وفريق دخلوا فى الإسلام ظاهرا وأبطنوا غيره ، وآخرون دخلوا فى الإسلام ولكنهم متأثرون بأقاصيصهم ، وأخبار أحبارهم ، وأولئك وهؤلاء أدخلوا فى الكتب الاسلامية وخصوصا فى بعض كتب التفسير شيئا كثيرا من أوهامهم ، وهم جميعاً كانوا من حملة الثقافة اليونانية التى كان لها الأثر الأكبر فى الفكر الاسلامى أيام ازدهار العلوم فى الدولة العباسية .